(١٠٥)

(بَرْسَباي الدقماقي الظاهري البرقوقي الملك الأشرف)[١]

اشتراه برقوق ثم أعتقه واستمر في خدمة ابنه الناصر، ثم صار مع المؤيد بعد قتل الناصر، وحضر معه إلى مصر فولّاه نيابة طرابلس، ثم غضب عليه فاعتقله. فلما دخل قطر الشام بعد المؤيد استصحبه إلى القاهرة، وقرّره دوادارا[٢] كبيراً، فلما استقر ابنه الصالح مُحمَّد كان نائباً عنه في التكلم مدة أشهر إلى أن أجمع الرأي على خلعه وسلطنة صاحب الترجمة، وذلك في ثامن ربيع الآخر سنة (٨٢٥)، وأذعن الأمراء والنواب لذلك، وساس الملك ونالته السعادة، ودانت له البلاد وأهلها. وفتحت في أيامه بلاد كثيرة من غير قتال، واستمر إلى أن (مات) في عصر يوم السبت ثالث عشر ذي الحجة سنة ٨٤١ إحدى وأربعين وثمانمائة، وعهد إلى ابنه العزيز بالسلطنة، وأن يكون الأتابك جقمق نظام المملكة، وكثر تزاحم الناس عليه. وكانت أيامه هدواً وسكوناً ولكنه كان موصوفاً بالشُّحِّ والبخل والطمع مع الجبن والخور وكثرة التلوُّن وسرعة الحركة، والتقلب في الأمور. وشمل بلاد مصر، والشام الخراب، وقلّت الأموال بها وافتقر الناس وساءَت سيرة الحكام والولاة مع بلوغ آماله ونيل أغراضه، وقهر أعاديه وقتلهم بيد غيره. وله مآثر في أرض مصر عظيمة، منها المدرسة المنسوبة إليه. ومدحه بعض العلماء بتوسيعه على الطلبة فوق ما كان يفعله من قبله فقال: السبب أنّ من تقدّم من الفقهاء لم يكونوا يوافقون الملوك على أغراضهم فلم يسمحوا لهم بكثير أمر. وأما فقهاء زماننا فهم لأجل كونهم في قبضتنا وطَوْع أمرنا نسمح لهم بهذا النزر اليسير. (قال السخاوي): وهذا كان إذ ذاك وإلّا فالآن مع موافقتهم لهم في إشاراتهم فضلاً عن عباراتهم لا يعطونهم شيئاً بل يتلفتون لما بأيديهم ويحسدونهم على اليسير. انتهى.

---

(١) ترجمته في: الضوء اللامع: ٣/ ٨؛ الأعلام: ٢/ ٤٨؛ بدائع الزهور: ٢/ ١٥.

(٢) الدوادار: الحاجب. قال تاج الدين السبكي فيه: «من حقّه الاستئذان على ذي الحاجة، وإنهاء ظلامته، وألّا يتركه على الأبواب لا يجد ملجأً إلى الدخول على الملك. وليعلم أن لصاحب الحاجة حقّاً عند أستاذه؛ لأن من وظيفة أستاذه سماع كلامه، وقضاء حاجته، إذا أمر بها الشرع، وليس لأستاذه حقٌّ عنده، فإن هو قصَّر فيما وصفناه كان هو الظالم لأستاذه المُتسبِّب في خراب دياره، الباغي على الرعية. وعليه المبادرة إلى تقديم الدواة عند ارتفاع القصص، وتذكير مخدومه بها. فربما اشتغل بال الملك عن ذلك ولم يجد من يذكره. وهذه وظيفة الدوادار». (معيد النعم ومبيد النقم: ٣٠).